

دور العقيدة الدينية في تفعيل الحوار الإثني
The role of religious belief in activating
ethnic dialogue

اليامين بن منصور*، المركز الجامعي بركة
Lyamine.benmansour@cu-barika.dz
بسمينة برعودي، جامعة باتنة 1
yberaoudi@gmail.com

تاريخ القبول 2025/05/15

تاريخ الاستلام: 2025/04/14

ملخص:

يستهدف هذا المقال إبراز المظهر الحضاري في إفريقيا عبر تاريخها الطويل، وأنها مهد السلام والتعايش السلمي بين مختلف الإثنيات، بالتركيز على البعد الديني أو العقيدة الدينية كإحدى المتغيرات غير المادية الأكثر تأثيرا في بناء وتكوين الهويات الإثنية، والقاسم المشترك بين مختلف هذه الإثنيات. لما تمارسه العقيدة الدينية من تأثير كبير على سلوك الجماعة الإثنية التي تعتقها من جميع الجوانب وخاصة الجانب السياسي، ومن جهة ثانية من شأن المقاربة الدينية أن تقدم تفسيراً واقعياً لظاهرة الصراعات الإثنية، وبالتالي تقديم طروحات ملموسة في تفعيل التواصل الإثني، باعتبارها - أي العقيدة الدينية - أداة قوية للحوار والإقناع والوساطة وإدارة التعدد والتنوع الإثني سواء داخل الدولة أو بين الدول. ويعد المنهج الوظيفي في نسخته السياسية الأمثل في توجيه هذا المحتوى النظري لتحقيق النتائج التي يصبو إليها والمتمثلة أساساً في تقديم مقاربة لفهم محدد للصراعات الإثنية في إفريقيا، ولتقريب وجهات النظر بين مختلف الإثنيات للعيش المشترك.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: العقيدة الدينية- الهوية الإثنية- الحوار الإثني- القيم المشتركة- الصراعات الإثنية.

Abstract:

This article aims to highlight the civilized appearance of Africa throughout its long history, and that it is the cradle of peace and peaceful coexistence among different ethnicities, focusing on the religious dimension or religious belief as one of the most influential non-material variables in building and forming ethnic identities, and the common denominator between these different ethnicities. Because religious belief has a great influence on the behavior of the ethnic group that embraces it from all aspects, especially the political aspect, and on the other hand, the religious approach can provide a realistic explanation for the phenomenon of ethnic conflicts, and thus provide tangible proposals in activating ethnic communication, considering it - that is, religious belief - a powerful tool for dialogue, persuasion, mediation, and management of ethnic diversity and pluralism, whether within the state or between states. The functional approach in its political version is the best in directing this theoretical content to achieve the results it aspires to, which are mainly represented in providing an approach to a specific understanding of ethnic conflicts in Africa, and to bring together the viewpoints of different ethnicities for coexistence.



Keywords: Religious belief, Ethnic identity, Ethnic dialogue, Common values, Ethnic conflicts.

1. مقدمة :

عرفت القارة الإفريقية أشكال متعددة من الحروب والصراعات المسلحة، كحروب الاستقلال والتحرر، وحروب بين الدول الإفريقية الحديثة، وصراعات مسلحة داخلية انفصالية، وهذا النمط الأخير من الصراعات هو أكثرها انتشارا بعد انتهاء الحرب الباردة، حتى باتت بعض المناطق الإفريقية توصف بأنها مناطق وبائية للصراعات المزمدة، حيث تتكرر فيها الصراعات المسلحة في فترات متعاقبة وطويلة، وتنتقل من دولة لأخرى.

كما وقع النظر إلى دور الدين متراوفا بين تعزيز الاتجاهات السلبية ومساعدة على التعصب غير أنه يساعد على عكس ذلك. فما تحتويه الأديان وتشترك فيه من قضايا حول التقارب الإنساني ونبذ العنف والكراهية والصراع العنيف يشكل قاعدة أساسية للتأسيس لحوار إثني، باعتباره أفضل السبل لكيفية التصرف بحكمة وتوازن أمام مثل هذه الصراعات والتوترات، وبشكل يؤدي إلى امتصاص العنف واللجوء إلى الحلول السلمية. وفي هذا الصدد يؤدي رجال الدين، وصفة المجتمعات ومثقفوها وقادتها وأصحاب السلطة المركزية والمؤسسات التي يشرفون عليها دينية كانت أم مدنية أم عرفية على السواء، الدور الفعال في تحقيق الحوار الإثني. هذا الأخير لا يمكن أن ينجح إلا في ظل الإيمان بوجود مبادئ إنسانية بين الأديان تشكل قاعدة مشتركة في ظل التنوع. "فهناك تعدد وتنوع ثقافي وإنساني ولكنه قائم على وجود جوهر إنساني وأخلاقي مشترك بين الإنسانية في مجموعها" (سعدي م، د-ت، صفحة 3).

ولما كانت فلسفة الصراعات الإثنية عموما تقوم على نزعة التقليل والانتقاص من شأن الآخر والنظر بازدراء إلى مقوماته الثقافية، "إن الصراعات عادة ما تندلع نتيجة سوء الفهم والخوف وانعدام الثقة بين مختلف الثقافات"، (سعدي، صفحة 3) لهذا ينبغي إعادة النظر ببعد ديني في آليات تشكيل صورة الأعداء، وفي التصور الذي يدفع إلى اعتبار أن الأعداء دائما هم الآخرون الذين

لا يتقاسمون معنا العقيدة الدينية. وفي مراجعة نزعة الاختزال والتبسيط والتعميم التي تسعى إلى نزع الطابع الإنساني عن هويات وإثنيات قائمة بذاتها. وفي إرساء رؤية جديدة للتراضي والتوافق بين مختلف الهويات الإثنية وإنشاء قاعدة لتفعيل التواصل الإنساني الذي تمنحه العقائد الدينية .

وفي هذا الخصوص تؤكد بعض الأدبيات السياسية أن التمايزات القبلية والدينية أو الثقافية، تشكل عاملا إيجابيا في الحد من احتمال نشوب النزاعات الإثنية على أساس هذه التمايزات، " فالتمايز الإثني إنما هو مصدر صحة وسلام للدول الإفريقية ذات الإثنيات المتعددة". فالحساسيات العرقية أو الإثنية أو الدينية نتيجة وليست سببا. (بمبا آ.، د-ت، صفحة 31)

2. شرح المصطلحات

1.2. العقيدة الدينية: لا يخلو مجتمع من عقيدة دينية يدين لها بالولاء، بغض النظر عن زيف أو صحة هذه العقيدة، فالتدين غريزة إنسانية. إن نظرة الإنسان إلى الحياة والكون ومفاهيمه في شتى المجالات بل وحتى عواطفه وأحاسيسه كلها تدور حول محور العقيدة التي يتبناها، والتي تسهم في بنائه الفكري والأخلاقي والاجتماعي، وتوجيه طاقاته نحو البناء والتغيير. ويتفق العلماء والباحثون على أن العقيدة تمثل أصل النظام الاجتماعي، وأن مختلف الأديان الإلهية والوضعية تمثل المصدر الرئيسي لها، فحياة الإنسان تعتمد أساسا على العقيدة، فكل شخص أو جماعة أو مجتمع يبني حياته على العقيدة التي يؤمن بها، فمنها يستمد قيمه ونظمه، ومن هنا تكمن أهمية العقيدة. " والعقيدة عامل ضبط في حياة الفرد وسلوكه، وكلما ازداد يقين الفرد بعقيدة معينة، زاد التزامه فكريا وسلوكيا بمقتضياتها... وإذا كانت العقيدة تسهم في صياغة الشخصية المتماسكة، فإنها تسهم كذلك في تحقيق تماسك الجماعة، وتحقيق التكامل الاجتماعي على مستوى المجتمع كله، لما تحققه من الشعور بالترابط والتقارب والألفة والقوة، بين أبناء العقيدة الواحدة، نتيجة لوحدة المنطلق، ووحدة الهدف" (زعيمي، 1997، صفحة 246).

إن العقيدة الدينية خاصية إنسانية ، وتعدد العقائد والشرائع الدينية سنة من سنن الله في الكون ، قال تعالى في سورة المائدة الآية 84 : "كلّ جعلنا منكم شريعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات". وقال تعالى في سورة هود الآية 118 و 119 : "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم". ولذلك يعد التفاعل مع مختلف العقائد دعوة دينية في الأساس لتحقيق التسامح الإنساني ، الذي يعد مبدأ راسخا في مختلف الديانات والعقائد. دون أن تكون هذه الخصوصيات العقائدية عائقا أمام التفاعل الإنساني بين مختلف الديانات (بويشيش ، 2006 ، صفحة 547) .

تُعد العقيدة الدينية إحدى المتغيرات الأكثر تأثيرا في بناء وتكوين الهويات الإثنية ، والقاسم المشترك بينها ، هذا من جهة ومن جهة ثانية إن الهوية الدينية والعقائدية تشكل عاملا مؤثرا في العلاقات الدولية. وتعد الأديان بديل قادر على تشخيص الأسباب العميقة للأزمات الإثنية وإيجاد الحلول المناسبة لها . على هذا الأساس وفي إطار السعي لإيجاد حلول مناسبة وفعالة لمختلف التوترات الإفريقية ، تعتبر المقاربة الدينية من أهم المداخل المقترحة في هذه المداخلة لبلوغ هذا المسعى .

2.2. العقيدة الإثنية: الإثنية ظاهرة تاريخية تعبر عن هوية اجتماعية ، تستند إلى ممارسات ثقافية معينة ومعتقدات دينية متفردة ، وعلى الاعتقاد بأصل وتاريخ مشترك ، وشعور بالانتماء إلى جماعة تؤكد هوية أفرادها في تفاعلهم مع بعضهم ومع الآخرين.

ويعد مصطلح الإثنية من المصطلحات الحديثة الاستعمال خاصة في العلوم الاجتماعية ، وقد شاع استخدامه منذ خمسينيات القرن العشرين ، ومنذ ذلك أصبح يستخدم للدلالة على جماعة بشرية يشترك أفرادها في العادات والتقاليد واللغة والدين وأي سمات أخرى مميزة كالأصل والملامح الفيزيائية الجسمانية وإن كانت الملامح الفيزيائية الجسمانية لا يعتد بها كسمة إثنية في أغلب

الأحيان خاصة من منظور ديني- وتعيش في إطار مجتمع واحد أو جماعة أو جماعات أخرى تختلف عنها في إحدى أو بعض هذه السمات .

فتحدد الجماعة الإثنية بناء على السمات الثقافية والدينية المشتركة وليس بناء على الجوانب السياسية. فهو مصطلح يشير إلى جماعة لا تعرف بالنظر إلى المؤسسات السياسية، ولكن بالنظر إلى علاقات الدين أو اللغة أو الروابط الإقليمية السائدة بين أعضائها (إيدابير، 2012، صفحة 12).

ويعرفها جورج قرم بقوله: "إن الإثنية جماعة بشرية تؤكد على مستوى محدد أفرادها نوعية خاصة موقوفة عليها دون غيرها من الجماعات وأهم نقطتين في النوعية الإثنية هما الدين واللغة لأنهما تكفلان تواصلًا أمثل بين أعضاء الإثنية، وهذا بشرط أن يكون هذان العنصران نوعيين فعلا ، ولا تشاطرهما فيهما جماعات اجتماعية أخرى". (قرم، 1978، صفحة 11).

ويجمع أمسال على العديد من الخصائص التي تميز الإثنية وهي اللغة، القيم، الإقليم العادات والوعي بانتساب أعضاء الإثنية إلى نفس المجموعة (بلعيد، 2010، صفحة 14). ولم يذكر الدين أو العقيدة الدينية كأحد الخصائص التي تحدد أو تميز إثنية ما عن غيرها. وهو ما نعتبره قصورا في تحديد مفهوم أوسع للإثنية ينطبق على مختلف الجماعات الإثنية، وخاصة تلك الجماعات التي يشكل فيها الدين محورا أساسيا في حياتها الاجتماعية.

وقد تستخدم الإثنية للتعبير عن التمايز الديني أو الطائفي، فالمسيحيون يشكلون إثنية في بلد أغليته بوزية أو إسلامية ، وهو ما ينطبق أيضا بالقدر نفسه على أي أقلية دينية حتى عندما تشترك بلغة وثقافة واحدة مع الأكثرية. (غليون، 2008، صفحة 22)

أما مصطلح الهوية الإثنية يمكن تعريفه بأنه: مجموع العناصر التي تشكل البنية الإثنية أو المحتوى الإثني، والتي تميزها عن غيرها من الإثنيات، وحسب أنتوني سميث (Antony smith) هناك ست فئات رئيسية تتيح لنا الدخول إلى قواعد الهوية الإثنية وهي: الاسم ، الماضي المشترك ، التاريخ ، الثقافة ، الإقليم، التضامن .

Selon Anthony Smith, six grandes catégories permettent de saisir les bases de l'identité ethnique : le nom, le passé commun, l'histoire, la culture, le territoire et la solidarité. (Geiser, 2024, p. 3)

ونستطيع أن نضيف عنصر الدين إلى هذه العناصر، لسبب وجيه هو أن الدين أو العقيدة الدينية تشكل الصفة البارزة في تحديد الهوية الإثنية وتعيينها. إذ أن الكثير من الإثنيات أو الوحدات الاجتماعية القائمة على الدين لها قابلية لتقوية علاقاتها الداخلية وتأكيد وجودها، والتأثير في الحياة السياسية والاجتماعية.

والواقع أن للإثنية جانبين، جانب إيجابي وهو المحافظة على التراث والعادات والتقاليد والقيم والاستقرار والتقدم داخل الوطن، وجانب سلبي يمكن أن يهدد التضامن الوطني، فالإثنية هي عادة ما ينظر إليها على أنها سلبية ومختلفة وخطيرة وتكمن الخطورة في استعمال الدعاية العرقية لتحقيق أهداف سياسة في سبيل إنشاء دول جديدة وحديثة مستقلة خاصة لمجموعة إثنية معينة.

ونحن نركز في مداخلتنا هذه على الجانب الإيجابي للإثنية، واعتباره المقومات الإثنية بمثابة تنوع وغنى يخدم التجانس والانسجام، انطلاقاً من الوعي بضرورة العيش المشترك.

3.2. القيم المشتركة: هي مجموعة المبادئ القواعد المشتركة بين كل الفضاءات الثقافية والدينية، التي تشكل منطلقات وموجهات السلوك الإنساني، ومرجعيات يتم من خلالها الحكم على الأفكار والأشخاص والمجتمعات. ومصدر القيم المشتركة الرؤية الإنسانية المشتركة التي تحملها مختلف العقائد الدينية.

4.2. الحوار الإثني: هو أداة لتقبل الآخر أو الآخرين الذين يختلفون في المقومات الإثنية خاصة منها العقيدة الدينية، سواء داخل الوطن الواحد أو خارجه، غرضه تحقيق الانسجام والتجانس الإثني، وتسوية الخلافات بالطرق السلمية. والمجموعة الإثنية تتواجد دائماً في مجتمع أكبر تتميز عنه في الهوية

الإثنية، ولها مطالب اتجاه هذا المجتمع الأكبر الذي تتواجد بداخله. وإن كان الطرح العددي لا يعتد به لتحديد موازين القوى والغلبة بين الجماعات الإثنية داخل المجتمع الواحد. كما أكده سعد الدين إبراهيم بقوله: "من الصعوبة بمكان الحكم على أن كل أقلية عديدة بالضرورة مقهورة، كما أنه ليست كل أغلبية بالضرورة قاهرة". (سعد الدين، 1992، صفحة 82)

ولا يتحقق الحوار الإثني إلا من منطلق القناعة بأن التعددية الإثنية تشكّل ثروة ثقافية، وقيام كل جماعة إثنية بتغيير نمط تفكيرها اتجاه الجماعات الإثنية الأخرى. حيث تتلاشى فيها ثقافة الاستعلاء والاستبداد والهيمنة والتبعية والانقياد .

وفي ظل الطرح الذي نؤسّس عليه مقالنا هذا المبني على مبدأ نبذ العصبوية الدينية والفكرية والقومية، والنأي جانبا عن فكرة القضاء على خصوصيات وهويات الشعوب والحضارات. يصبح الحوار بين مختلف الإثنيات ممكنا ومضمونا. وخاصة منها تلك التي تتقاسم الانتماء الجغرافي والتاريخي... وغيرها من القواسم المشتركة .

وإن دعت مختلف المحافل الدولية والمنظمات إلى الحوار في أشكال متعددة، وتحت مسميات مختلفة كحوار الحضارات وحوار الثقافات وحوار الأديان والحوار الإنساني، الذي تملّيه مساعي درء الانقسام والتشتت والصراع بين سكان الأرض، فإن الحوار الإثني يعد بدوره مطلبا ملحا ومقصدا دينيا في ذات الوقت، في سبيل حل النزاعات والصراعات القائمة على أسس إثنية.

3. خصائص النزاعات الإفريقية

لقد وُصفت إفريقيا في الكتاب السنوي للمعهد الدولي للسلام في ستوكهولم لعامي (2000-2002) بأنها: "أكثر مناطق العالم تمزقا بالحروب، وهي المنطقة الوحيدة في العالم حيث نسب الحروب الأهلية المسلحة في تزايد". كما وصفها أحد الباحثين بقوله: "إن إفريقيا وخاصة جنوب الصحراء، تتداعى إربا إربا، إنها ترزح تحت وطأة التزايد السكاني، والفقر، والأمية، والجوع، والجفاف، والحروب القبلية، والإيدز، والفساد الإداري،

والجرائم، والتصحر، والأوبئة، فأينما توجهت ترى اللاجئين. إن إفريقيا جنوب الصحراء هي العالم الثالث للعالم الثالث" (بمبا، صفحة 12).

إن جذور النزاعات الإفريقية تنتمي إلى منظومة متداخلة من العوامل، تمثل فيها العوامل الاقتصادية والسياسية والتاريخية مركز هذه المؤشرات، أما التمايزات القبلية والدينية فتعد أسبابا غير مباشرة للنزاعات القائمة في إفريقيا قديما أو حديثا. لسبب وجيه هو أن التنوع الإثني والديني والثقافي في إفريقيا يعتبر عاملا إيجابيا في الحد من وقوع الصراعات على أساس هذه التمايزات الإثنية، فأمام التنوع والتعدد من الصعوبة بمكان اقناع الأفراد والمجموعات في الانضواء تحت راية إثنية أو دينية أو ثقافية واحدة، من أجل قضية واحدة، لذلك يعد "التمايز الإثني مصدر صحة وسلام للدول الإفريقية ذات الإثنيات المتعددة". (بمبا، صفحة 21)

فرغم أن إفريقيا تمتلك نحو 33% من جملة اللغات الحية في العالم، كما أنها تحوي كل الديانات السماوية الإسلام والمسيحية واليهودية، ومختلف الديانات القبلية التقليدية إلا أن ربط النزاعات في إفريقيا بالتعدد الديني واللغوي والثقافي يعد حكما متسرعاً لظاهرة معقدة.

وفي دراسة إحصائية حول خصائص النزاعات الأهلية في إفريقيا في 161 دولة إفريقية في فترة 1960 و1999م أكدت أن: "الحروب الأهلية في إفريقيا ليس مردها التباينات القبلية واللغوية البالغة، ولكن مردها الفقر الفاحش، والاعتماد الكلي على الموارد الأولية، وعلى وجه خاص الإخفاق في المؤسسات السياسية". (بمبا، صفحة 22) فالحساسيات العرقية أو القبلية تعد نتيجة للصراعات وليست سببا لها، وتفسير ذلك أنه حينما تنهار السلطة المركزية، ويتردى مستوى الأمن، فإن الأفراد والجماعات في المجتمع الواحد تحتمي بانتماءاتها الضيقة، وفي هذا الظرف تقوى الروابط العرقية والقبلية، ويضعف الانتماء إلى الهيكل الاجتماعي الواسع أي الدولة. لذلك قد تتعرض المجتمعات التي تقل فيها التمايزات القبلية والإثنية إلى نزاعات مختلفة، بسبب الترددي الاقتصادي والسياسي.

أما بالنسبة للعامل الديني وعلاقته بالصراعات الإثنية فكون الدين جزء لا يتجزأ من هوية الأفراد والمجتمعات، إن لم نقل مكونا جوهريا، وكونه كذلك أنه مرتبط بالاعتقاد -كأحد المكونات الأساسية للدين- الذي يرتبط بنظرة الإنسان للكون وبمكوناته وعناصره، من خلال القيم والمعايير الدينية. فمن المنطقي أن يقحم الدين كمحور من محاور النزاعات بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

وعموما فمن الصعوبة بمكان الخروج بصورة نهائية مكتملة عن الصراعات الإثنية في افريقيا، إلا أنه يمكن إجمال بعض الخصائص التي تميز الصراعات الإثنية في افريقيا (بمبا، صفحة 32):

- أغلب النزاعات الإثنية في افريقيا لا تقوم على أساس ديني. أو على الأقل لا يعد العامل الديني سببا مباشرا لها.
- تتميز النزاعات الإثنية في افريقيا بالدموية المفرطة.
- ارتباط النزاعات الإثنية في افريقيا بالقوى الاستعمارية السابقة، حيث ينفلت الصراع من أيدي الأطراف المتصارعة في الميدان.
- رغم أن النزاعات الإثنية في افريقيا قصيرة نسبيًا، إلا أن نسبتها مرتفعة، حيث قدرت بحوالي 8 نزاعات خلال كل سنة.

4. لمحة تاريخية عن ثقافة السلام في المعتقدات الإفريقية القديمة

يؤكد علماء الأنثروبولوجيا أن المجتمعات الإفريقية من المجتمعات المتدينة، حيث يؤثر المعتقد الديني تأثيرا بالغًا على مجمل حياتها، السياسية والاقتصادية والقروية وغيرها من مظاهر الحياة، وما يصاحبها من ممارسات للشعائر التعبدية والطقوس الدينية (عبد الجواد، 1997، صفحة 87). وفي هذا السياق اعتقد المجتمع الإفريقي القديم أن الحرب نذير سخط الآلهة على البشر، لحيادهم عن الطريق الصحيح وإزعاجهم الانسجام الكوني: "إن معظم القبائل الإفريقية ترى الحرب كارثة اجتماعية ونقمة يرسلها الإله لمعاقبة البشر، أو لتطهيرهم من بعض الأخطاء التي ارتكبتها المجتمع، أو

ارتكبها بعض أفرادها" (بمبا، صفحة 36)، ولذلك يفزع الأفارقة إلى القرابين والطقوس المختلفة، رغبة في إعادة التوازن والانسجام في الكون. وفي المقابل فإن الحفاظ على السلام له مردود نفعي مباشر في نيل رضا الآلهة ومكافأتهم. وأهم خاصية في الاعتقاد الإفريقي نحو السلام ليس انتفاء الحرب والنزاعات في المجتمع، بل يتعدى إلى احتواء كل المبادئ التي تحقق الانسجام مع الكون. كما كان يعتقد الإفريقي القديم أن السحب الماطرة تنقشع عن المواضع التي يسود فيها الخلاف، وتنتقل إلى المناطق التي يسودها الوئام والتسامح، فسبب جذب الأرض يعزى إلى النزاعات، وتعد النزاعات في حد ذاتها نذير شؤم للأفراد والمجتمعات. فكل ما يصيبهم من كوارث من أمراض وأوبئة وجفاف وحصاد رديء وموت مفاجئ وحروب، كلها من نقمة الآلهة، ولا بد من طقوس استرضائية لإزالة تلك الكوارث. هذا ومن الصعوبة بمكان حصر الموروث التاريخي للمعتقدات الإفريقية القديمة التي تمدنا برؤية واضحة وعميقة عن ثقافة السلام في المجتمع الإفريقي القديم.

أما وقد عرفت إفريقيا الإسلام منذ العهد الأول للهجرة، فقد تدعم الاعتقاد الإفريقي القديم نحو السلام بالرؤية الإسلامية، خاصة وأن الموقف الإسلامي ينبع من الأعراف والتقاليد المحلية في أي مجتمع يدخله، فينظر إلى كل ما أفرزه العقل الإنساني والخبرة الجماعية من آليات وأعراف في تنظيم شؤونها نظرة إيجابية، فيدعمها ويعززها طالما أنها لا تتال من الكرامة الإنسانية، ولا تعارض أساسا من أسس الإسلام وعقيدته. فقد أبقى على العديد من العادات والتقاليد الإفريقية، بحيث يمكن القول: بأن الإسلام قد مثل في أفريقيا مظهراً من مظاهر الوحدة الداخلية بين الجماعات.

ويشير التاريخ الإفريقي أن المجتمعات الإفريقية التقليدية أو القديمة سعى فيها الأفراد والجماعات على السواء إلى احتواء الخلافات والصراعات، بما يحقق الانسجام والتناغم، ومن تلك الفئات الاجتماعية التي اضطلعت بهذا الدور، النساء، وكبار السن والزعماء، وتنظيمات اجتماعية عرفت قديماً بالجماعات السرية.

فقد مثل كبار السن في المجتمعات الإفريقية القديمة دورا محوريا في آلية التعامل مع النزاعات، وحفظ السلام وبلوغ الوئام الاجتماعي، وهذا الدور الذي يضطلعون به مستمد من المكانة المركزية التي يتمتعون بها في المجتمع الإفريقي التقليدي. كما هو الشأن أيضا بالنسبة للمرأة الإفريقية القديمة، فقد كانت تضطلع هي الأخرى بمكانة خاصة في المساعي السلمية في المجتمعات الإفريقية، ففي ثقافات افريقيا التقليدية تقوم المرأة بدور الوساطة بين الخصوم وإيجاد الحلول لها، ومن أنماط النساء التي يقمن بهذا الدور نجد الزوجة الأولى في الأسرة الحاكمة، والمرأة الحامل، والمرأة المسنة .

وفي العرف الإفريقي القديم يعتبر الزعماء والملوك وأرباب العشائر حماة لشعوبهم، ومحافظين على الأنظمة السياسية والاجتماعية وحتى الروحية، فينظر إليهم على أنهم الوسطاء بين عالم الأحياء وعالم الأرواح المتمثل في الأسلاف، لذلك يحرصون على الأمن والوئام داخل المجموعة التي يتزعمونها أيما حرص، وحتى بين المجموعات الأخرى. كما كانوا يحرصون على عقد علاقات ودّ وصداقة بينهم، ويتبادلون الهدايا من ثمار وأقداح مزينة، وجلود الثمور وقطع الأثاث المصنوعة من العاج. ونشير إلى أن لا يزال للزعماء والملوك لحد الآن الدور الفعال في حل النزاعات في الدول الإفريقية الحديثة (بمبا، صفحة 46).

ما يؤكد أن الاعتقاد الديني عامل إيجابي وأساسي في منع وقوع النزاعات، وفي حلّها إن وقعت، وفي إصلاح ما أفسدته الحروب، ذلك لانطواء المعتقدات الدينية على قيم روحية وإنسانية للسلام والتسامح والعدالة وغيرها من القيم التي تكرر السلام لدى الفرد والمجتمع على السواء، كما أن لرجال الدين والمؤسسات الدينية نفوذا كبيرا على الأطراف المتصارعة حال نشوب النزاعات، ومن خلالهم يمكن التحكم في مواقف الأفراد والجماعات .

هذا وينبغي تسجيل بعض السمات البارزة في أدبيات السلام، وآليات حل النزاعات في الثقافة الإفريقية التقليدية، والمتمثلة فيما يلي (بمبا، صفحة 84) :

1.4 البعد الاجتماعي: ويتجسد في حرص الوسطاء على خلق روابط اجتماعية قوية بين الأطراف المتصارعة، حيث تختم مجالس الصلح بالزيجات المتبادلة، أو

بتجديد الأحلاف، فيتحول الصراع إلى عنصر إيجابي في تماسك المجتمع، وتقارب أفراد.

2.4. البعد الجماعي: يتحدد الوجود الاجتماعي في المجتمعات التقليدية بحدود القبيلة أو العشيرة، لذلك نجد القبيلة أو العشيرة برمتها تشارك في جميع مراحل العملية السلمية، حتى وإن كان الصراع بين فردين فقط، فإن عملية التوسط تشمل المجموعة كلها. وهذا ما يمنح للعملية السلمية البعد الجماعي.

3.4. بعد البساطة والوضوح: الآليات التقليدية في حل النزاعات غير معقدة وسهلة التطبيق، ونهائية للخلافات.

4.4. البعد التطوعي: وسطاء السلام في المجتمعات الإفريقية التقليدية لا يتقاضون أجورا عينية عن مساعي الوساطة السلمية التي يقومون بها. حرصا على إيجاد وثام اجتماعي دائم بين الأطراف المتصارعة.

5.4. الطابع الغيبي: السلام في المجتمعات الإفريقية التقليدية هبة من القوى الغيبية والأسلاف، وعملية السلام في حد ذاتها إرضاء لها، وأن مكابرة أحد أطراف النزاع عن المصالحة والتنازل، يمثل تهديدا واستفزاز مباشر للقوى الغيبية.

6.4. بعد قبول المصالحة والتنازل: إن قناعة كل أطراف النزاع بمساوئ استمرار الخلاف على المستوى الاعتقادي، يدفع بأطراف النزاع إلى المسارعة في المصالحة والتنازل والتسامح.

7.4. بعد الانسجام العقدي: بمعنى أن آليات حل النزاعات في المجتمعات الإفريقية منسجمة تماما مع معتقداتهم المحلية، بمعنى أنها نابعة بالأساس من الرؤية الإفريقية الخاصة للعالم.

ما نود التأكيد عليه من خلال هذا الجولة التاريخية المقتضبة حول الجهود السلمية في إفريقيا القديمة، هو أن الرؤية السلمية أصيلة في المجتمعات الإفريقية القديمة، فإن تلك المجتمعات توصلت عبر تاريخها الطويل وخبراتها وتجاربها المختلفة إلى وضع آليات تضمن للسلام مكانته، وتحافظ على روح التسامح والتعايش المنسجم بين الأفراد والجماعات، وتعمل على حل النزاعات

إن وقعت. فإذا كانت هذه هي الرؤية القديمة للمجتمعات الإفريقية، فلماذا المجتمعات الإفريقية الحديثة غير قادرة على دعم جهود السلام والحوار بينها؟. ونستطيع أن نقول أن هذه الرؤية السلمية ممكنة التحقيق بناء على البعد الحضاري الاصيل للمجتمعات الإفريقية. من خلال إعادة بعث قيم السلام والحوار في افريقيا، فالصراعات الإثنية في افريقيا إلا نتيجة مباشرة للتاريخ الذي ورثته افريقيا عن الاستعمار الذي أحدث تغيير غير طبيعي في العلاقات التاريخية داخل القبائل الإفريقية وبين بعضها البعض، ولم يتمكن الأفراد والمجموعات الفكك منه، كظرف تقسيم افريقيا في مؤتمر برلين الشهير عام 1884م، أين تم تشتيت مجموعات قبلية بين دول متعددة .

5. أسباب ونتائج الصراعات الإثنية في افريقيا واستراتيجيات حلها

إن التنوع الاثني الذي تزخر به القارة الإفريقية جعله مطمح القوى الاستعمارية قديما وحديثا في تقسيم هذه القارة إلى إثنيات مختلفة غير متجانسة، فقد أدت السياسات الاستعمارية في إفريقيا الهادفة إلى ترسيم الحدود بشكل مصطنع بين دول القارة الإفريقية، الذي لم يراع الحدود الأنثروبولوجية للمجتمعات الإفريقية، فقد أدت إلى تشتيت أو ووجود جماعات عرقية ذات تاريخ من العداة والصراع داخل حدود إقليمية واحدة؛ وهو الأمر الذي شجع على تزايد حدة الصراعات العرقية في كثير من المواقع، والتهجير القسري، واتباع سياسة فرق تسد، من خلال الإغلاء من شأن جماعات إثنية معينة على حساب جماعات أخرى، وكذا المساعي التمييزية التي انتهجتها الحكومات الإفريقية بعد الاستقلال بين الجماعات الإثنية المتعددة التي تعيش على أقاليمها. إلى استمرار الصراعات الإثنية في أغلب الدول الإفريقية إلى يومنا هذا.

حتى أضحت مظاهر كالتظاهرات، والتوترات الأمنية، والإضرابات، والتمردات المسلحة، والانقلابات العسكرية، والمحاولات الانفصالية، وحروب العصابات، وبصورة عامة انهيار الدولة الجزئي أو الكامل، من المشاهد المألوفة في القارة الإفريقية، فخلال الفترة الممتدة بين سنتي 1990م و1997م

مثلا اندلعت في إفريقيا أكثر من 30 حرباً، كان معظمها داخلياً، وفي العام 1996م وحده، نُكبت 14 دولة إفريقية بنزاعات داخلية مسلحة، ناجمة عن عوامل عديدة في مقدمتها العوامل الإثنية .

وأصبحت الإثنية في إفريقيا محفزاً أساسياً لإثارة الصراعات والحروب الأهلية فيها. وعلى ضوء الإثنية أيضاً يصوغ أطراف الصراعات والحروب مطالبهم، ويؤسسون تحالفاتهم الداخلية والخارجية، وتتكون رؤيتهم لخصومهم بصفة خاصة، وللعالم الخارجي بوجه عام بناء على انتمائهم الإثني. واستناداً إلى العامل الإثني دائماً، تقوم الجماعات الإثنية بحشد أبنائها ضد النظام الحاكم أو ضد الجماعات الإثنية الأخرى .

إن ما ينجم عن الصراعات الإثنية أشكال عديدة من الانتهاك لحقوق الإنسان الأساسية المرتبطة بالحفاظ على الكرامة الإنسانية، حيث يتعرض فيها السكان للتعذيب، والاعتقال التعسفي، والنفي، والحرمان من المحاكمة العلنية العادلة.. وغيرها صور الاضطهاد. كما تسهم تلك الصراعات في تنامي الاعتداءات على الحريات المدنية والسياسية، ومن ذلك تقييد الحق في التعبير، والمشاركة السياسية، والتنظيم، والانتقال، وممارسة الشعائر الدينية. وغيرها من الحقوق الأساسية.

ومن أهم آثار الحروب والصراعات الإثنية في إفريقيا:

-انهيار البنى التحتية للدولة.

-انهيار البنية الاقتصادية.

-انهيار المؤسسة الوطنية.

-تمزق النسيج الاجتماعي.

إن الاستراتيجيات المتعددة المعتمدة في حل الصراعات الإثنية سواء استراتيجيات الاحتواء، والاستيعاب، أو الوحدة في إطار التعدد، كلها استراتيجيات تنضوي تحت مفهوم المصالحة، والتي يمكن أن تتحقق في إطار الحوار المبني على أسس دينية.

فبالعودة لمحتوى كل استراتيجية على حدا نجد أنها تحمل مضمونا قيميا، قائما على أساس الاحترام المتبادل، والتمثيل في السلطة، والاعتراف بالآخر.. وغيرها من القيم التي تضمن التعايش السلمي والتصالح بين مختلف الأطراف المتصارعة .

وفيما يلي شرح مفصل لمضمون بعض هذه الاستراتيجيات التي نراها تتوافق والبعد الديني الذي طرحناه خلال هذه المداخلة، بمعنى أنه يمكن اعتماد هذه الاستراتيجيات كآليات للتوصل لحوار إثني، وتحقيق التجانس بينها، ومن بين هذه الاستراتيجيات نذكر ما يلي (شبانة أ.، 2016، صفحة 1):

-الاستيعاب: وتهدف هذه الاستراتيجية إلى تقبل قيم الجماعة الحاكمة وثقافتها، أو السيطرة بالرضا والإقناع. وقد يكون الاستيعاب ثقافياً بتذويب الثقافات المتباينة في إطار ثقافة الجماعة المسيطرة، كما يكون الاستيعاب بإنشاء مؤسسات اجتماعية وثقافية تشارك فيها كل الجماعات المتميزة ثقافياً، وفي أحيان أخرى يكون الاستيعاب بالقضاء على التمايز أو الاختلافات البيولوجية عبر تشجيع الزواج المختلط مثلاً.

-التعددية: وتعني الاعتراف بالآخر، وإعطاء وزن أكبر للحقوق والمصالح الجماعية للأقليات.

-الوحدة من خلال التعدد: ترمي هذه الاستراتيجية إلى تأسيس الولاء القومي دون القضاء على الثقافات الفرعية، حيث يتم إيجاد نوع من الولاء والثقافة المشتركة بينها، ويكون للجماعات الإثنية الحق في استخدام لغاتها، وإقامة شعائرها الدينية، وحماية تراثها الثقافي. ومن أبرز أدوات هذه الاستراتيجية، الفيدرالية، والكونفدرالية، والحكم الذاتي الإقليمي.

-تقاسم السلطة: تطرح هذه الاستراتيجية نهجاً مختلفاً في التعامل مع وضعية التعددية المجتمعية من خلال الاعتراف بالهوية الجماعية، وتقوم على أربع ركائز: هي: تمثيل كل الجماعات المتميزة والفاعلة في السلطة، ووجود درجة عالية من الاستقلال والحكم الذاتي لهذه الجماعات، وتخصيص حصص معينة في السلطة وعوائدها لهذه الجماعات، وحماية حقوق الأقليات.

6. منطلقات تفعيل الحوار الإثني

لا شك أن لكل إثنية هويتها الدينية التي تميزها والتي تحمل في ذات الوقت مضمونا قيميا ، وثمة مجموعة قيم إنسانية أساسية مشتركة بين كل الفضاءات الإثنية ، ينبغي استثمارها والتركيز عليها للتأسيس لتحقيق حوار إثني. فالقيم مثل: الحوار ، السلام ، والتعايش والتسامح ، والتواضع ، الوعي الإنساني ، والتضامن ، والأخوة الإنسانية وغيرها من القيم الإنسانية المشتركة... هي جزء من إنسانية كل إنسان. ولذلك فالجوهر الإنساني حاضر في كل التقاليد الثقافية والدينية لكل الشعوب عبر التاريخ الطويل للإنسانية. وبالتالي لا يمكن للإنسانية العيش والبقاء بدون قيم إنسانية تركز التسامح ونبذ العنف بكل أشكاله. والمجتمعات الإفريقية في أمس الحاجة اليوم إلى إيكولوجيا ثقافية لتحويل ثقافتها وعقائدها الدينية إلى ركائز للحوار والتضامن والمسؤولية الجماعية لبناء أفق مشترك. وهناك مجموعة من القيم الإنسانية الأساسية التي تشترك فيها أغلب العقائد الدينية ، يمكن التأسيس عليها لتفعيل حوار إثني حقيقي بين مختلف الهويات الإثنيات في إفريقيا ، ودرء النزاعات والصراعات. (سعيد ، صفحة 5) ، من أهمها الحوار كقيمة أساسية لا تختلف حولها الثقافات والديانات ، والتاريخ الإنساني يكشف لنا عن هذه القيمة بين مختلف الحضارات الإنسانية ، وما التبادل الفكري الذي وقع بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى إلا واحد من الشواهد التي تؤكد ذلك ، فقناعة الانفتاح على الآخر في ثقافته وتراثه قيمة تاريخية بالأساس عاشتها وجسدتها الحضارات الإنسانية المتعاقبة عبر التاريخ الإنساني الطويل ، ولا يزال الاستثمار فيها قاعدة لدرء النزاعات الإثنية.

7. الخاتمة :

أصبح من الضروري تشجيع ثقافة الحوار قصد تدعيم قيم التضامن ، الإخاء ، والتسامح ، ومن شأن ذلك أن يجنب القارة الإفريقية الكثير من المآسي والحروب والعنف وأن يرسى قيم السلام والتعاون.

إن الرّهان على الحس المشترك للإنسانية نحو الدين ووحدة مصيرها يحرر الإنسان من استيلاياته ويمنحه الثقة في حاضره ومستقبله، كفيل بأن يؤسس لقواعد الحوار بين الشعوب والحضارات وبين الإثنيات الإفريقية المختلفة. ويبدو أننا في حاجة إلى إيكولوجيا أخلاقية في قارتنا الإفريقية للحفاظ على البيئة الثقافية والاجتماعية للشعوب ولإدارة وتدبير مختلف المواقف الصراعية، ولتحويل الإثنية إلى محرك فعال للتنمية وانفتاح الشخصية الإنسانية .

إن معالجة مسألة حوار الإثنيات الإفريقية هدفه تغليب خيار تقبل الثقافة المتعددة الأبعاد، وأن التنوع والاختلاف هو ثروة وغنى للقارة الإفريقية. والتأكيد على التكامل الذي يغني المجتمع الإفريقي، فالتنوع الإثني في إفريقيا يجب أن يُستغل من أجل تطورها، وليس لتصارعها. كما أنه لا يمكن في هذا السياق تجاهل المتغير الديني الذي كان ولا يزال له أثره في هذه المجتمعات، لذلك لا بد من دراسة العلاقة بين الظاهرتين، الدينية والسياسية، وإعطائها أهميتها، ومتابعة انعكاساتها، سواء بالنسبة لتحديد غايات السياسة، أو لوضع التصور الملائم لبناء النظم وأشكال المؤسسات. ويمكن التأسيس لاقتراح نموذج سياسي تتلاقى فيه الصراعات والنزاعات، مبني على المخزون التاريخي العقدي الذي تزخر به القارة الإفريقية كبعض التجارب السياسية التي توحدت فيه القبائل والجماعات.

قائمة المراجع:

- ايدابير. أحمد (2012). التعددية الإثنية والامن المجتمعي: دراسة حالة مالي (رسالة ماجستير)، الجزائر، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر3.
- بلعيد. سميرة (2010). الصراعات الإثنية في إفريقيا وتأثيرها على مسار الديمقراطية فيها: الكونغو الديمقراطية نموذجا (مذكرة ماجستير) ، كلية الحقوق قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، الجزائر: جامعة منتوري قسنطينة.
- بمبا. آدم (د-ت). النزاعات الأهلية في إفريقيا: قراءة في الموروث السلمي الاسلامي. تايلاند: فطاني دار السلام.

- بوشيش. صالح (2006). الخطاب الديني وأهميته في ارساء ثقافة الحوار. مجلة الأحياء، صفحة 547.
- ز عيمي. مراد (1997). النظرية العلم-اجتماعية: رؤية إسلامية. قسنطينة: جامعة قسنطينة.
- سعد الدين. ابراهيم (1992). تأملات في مسألة الاقليات. القاهرة: دار سعادة الصباح.
- سعدي. محمد (د-ت). من أجل أخلاقية عالمية للحوار ونشر ثقافة السلام. <https://www.philadelphia.edu.jo/arts/01, 2025.04>
- شبانة. أيمن السيد الصراعات الإثنية في إفريقيا الخصائص.. التداعيات.. سبل المواجهة www.qiraatafrican.com/home/new. 9, 2, 2025.
- عبد الجواد. فاروق (1997). الانثروبولوجيا. القاهرة: معهد البحوث والدراسات الافريقية.
- غليون. برهان (2008). الاثنية والقبلية ومستقبل الشعوب البدائية. مجلة التسامح، العدد 22، صفحة 22.
- القرضاوي. يوسف (2010). اشكالية الوطن والوطنية والمواطنة. مجلة رسالة المسجد، 63.
- قزم. جورج (سبتمبر، 1978). انتاج الايديولوجيا وصراع الهوية فب المجتمع اللبناني. مجلة دراسات عربية، صفحة 11 .
- Geiser, C. (2024, mars 24). approches théoriques sur les conflits ethniques et les rufégiés. <https://www.paixbalkans.org/>, Consulté le fevrier 09, 2025.